المرأة والأصلاح

للأستاذ الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى

" نص المحاضرة التى ألقاها فى نادى الصحفيين بدعوة من الحزب النسائى "

سيداتى وسادتى :

ومعذرة إذا فرقت بين السيدات والسادة ، فما لى فى هذا رأى أو حيلة ، فانه حكم اللغة ، لا حكمى ، واذا قلت اللغة ، فكأنى قلت الطبيعة ، واللغة — كل لغة — مما صنع الانسان بالهام الفطرة ، والانسان هو الرجل والمرأة ، لا الرجل وحده ، ولا المرأة بمفردها ، بل إن المرأة هى المسئول الأول عن هذه اللغة التى تتخذها جميعا — رجالا ونساء — أداة للتفاهم ، فقد كانت حواء هى التى سمت الأشياء التى أ- وجتها اليها حياتها ووظيفتها أسماءها ، ووضعت لها نعوتها وأوصافها ، وقررتها وصقلتها بالتكرار ، أى أيام كان الناس جماعات على الفطرة لم تأخذ من المدنية بنصيب ، ولم تقسمها الصفات الشخصية والملكات العقلية طوائف ، ولم يفرق بين أفرادها اختلاف المراتب وتباين الأعمال وتعدد الآراء ، وأيام كانت حدود الفرد هى حدود التقاليد والعادات المشتركة بين الجماعة كلها .

فى تلك الأيام كان الرجل يخرج للصيد أو للحرب ويترك المرأة فى كهفها أو كوخها ، ليعود فيلقى اليها بما فاز به فى يومه ، وليس من اليسير أن نرد عقربى الساعة آلافا من السنين ، أو عشرات الآلاف ، وأن نتصور حياة الانسان ، أو الجماعة الانسانية على نحو ما كانت ، فان هذا يحتاج إلى جهد من الخيال يكاد يجاوز الطاقة ، ولكنه جهد غير مستحيل ، وما زال الرجل إلى الآن هو الذى يسعى ويتصرف ، ويكد ويجد لكسب الرزق ، وما زالت المرأة ، مع الأسف ، هى القاعدة غير الساعية فى الأغلب والأعم ، والرجل هو الذى يحمل السلاح ويخوض القتال ، والمرأة هى التى تزوده بما يفتقر اليه من التشجيع والعطف والترفيه ، وقد تعد له هذا السلاح الذى يضرب به ويدافع ، أو على الأقل تشارك فى اعداده ، فاذا كان هذا هو الواقع من أمر الفريقين — الرجل والمرأة — إلى اليوم ، فليس من الشطط فى التخيل ، والاغراق فى التوهم ، أن نقول إن الرجل كان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان كما تقول القصص القديمة ، هو الذى عليه كسب الرزق والحرب باغيا ومدافعا ، وان المرأة هى التى كانت تقعد منتظرة ما يعود أو لا يعود به إليها .

والحرب والصيد يغريان بالصمت أكثر مما يغريان بالكلام ، لأن طبيعة العمل فيهما تقتضى ذلك ، والحركة والخفة والمحاتلة ، تتطلبه ، فما يعقل أن يخرج الرجال للصيد فيملأوا الأرض والسماء ضجيجا وصخبا ويرجو أن يقعوا على الفريسة ، فما يذهبون للسمر ، بل للفاجأة

والكر المنجح ، وكذلك الحرب ، وقد تكون الأصوات المزعجة مما يلجأ إليه المحارب ليوقع الرعب فى قلوب خصومه ، كما حدث حتى فى هـذه الحرب ، التى رأينا فيها الطائرات تخرج نوعا من الصفير يخلع القلوب و يتلف الأعصاب ، ولكن هـذه الأصوات على شدة وقعها فى النفوس ليست كلاما ، وإنما هى نوع من الضوضاء والجلبة ، وليس معنى هذا أن الذين كانو يخرجون للصيد أو للحرب فى العهود الفطرية من حياة الجماعة الإنسانية ، كانوا لا يتكلمون ، فما من شك فى أنهم كانوا يتكلمون فى الطريق إلى حيث يريدون ، وقبل أن يبلغوا مكان الصيد أو الموضع الذى يتخيرونه للقتال ، و بعد أن يعودوا من ذلك أيضا ، منجحين أو مخفقين ، فيصف بعضهم لبعض ما كان فى غارة سابقة ، وما وقع لهم فى يومهم ، وما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى وعباب محشوة ، وقامات معتدلة ، ورؤس مرفوعة . إلى آخر هذا ، ولكنهم فى أثناء الطرد والصيد والقتال يصمتون أكثر الوقت .

والمرأة على خلاف ذلك ، فهى أكثر الوقت بين أترابها ، إذ كان عملها لا يضطرها إلى الوحدة ، فهى تباشره فى جماعة منهن قليلة أو عديدة ، وفى يد كل منهن عملها كائنا ما كان ، وهن فى أثناء ذلك لا تستريح ألسنتهن فى حلوقهن ، ولا تنقطع عن الدوران ، وأحسب أن من الحقائق أن النساء أكثر كلاما من الرجال ، وقد يجلس الرجل إلى صاحبه ، وينقضى معظم الوقت وكلامهما مطبق الفم ، أما النساء فهـذا هو المستحيل عليهن ، أو هو الذى يشبه المستحيل ، وليس فى قولى هذا غض من قدر المرأة ، وأما أعاله بأن عمل المرأة لا يكلفها مجهودا عقليا مستغرقا ، ففى وسعها أن تباشر عملها بناحية من عقلها ، وأن تواصل الحديث بناحية أخرى ، ومن الرجال أيضا من لا تكبدهم أعمالهم مشقة فيسعهم أن يتحدثوا وهم يعملون .

ومن هنا كانت المرأة هى التى أعانتها وظيفتها فى الحياة على وضع الألفاظ ، وقررتها وصقلها وأشاعتها بتكرار الاستعمال ، وكثرة الترديد ، والتكرار هو الذى يذيع اللفظ و يشيع استعماله ، ويجعله مادة حية ، وفضل النساء فى ذلك عظيم ، هن الثرثارات اللواتى يخدمن اللغة و يقررنها بالتداول ، ويشعنها فى الجماعة ، ويدرنها على الألسنة ، ويثبتنها فى الذاكرة — يجىء إليهن الرجل يقتصه و يقص عليهن ما جرى له فى يومه وقلما يعيد القصة إلا إذا كان فياشا فشارا ، ولكن المرأة تحكيها لأترابها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة . تارة بافاضة ، وأخرى بايجاز ، وطورا توشيها بأخيلتها الحسية ، وطورا تطرزها بوصف هيئة الرجل ، وهو يلقى قصته ، أو ما تقدر فيه من المزايا والصفات ، وتخرج من ذلك وتستطرد الى مائة موضوع آخر قد يعيى الرجل أن يلمح الصلة التى تربط هـذه المواضيع بالحكاية

الأصلية ، يضاف الى هـذا ما لا تفتأ تحدث به عن عملها أو أعمالها هى ، وأكثرها فى الأطوار الأولى من نشوء الجماعات الانسانية صناعى ، أو أدخل من غيره فى باب الصناعة . ومن هنا كانت المرأة هى المخترعة الأولى للصناعات الأولية ولا سيما المنزلية منها ، والأطفال ؟ أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأولى الى المرأة ؟ هى التى تغذى الطفـل وتنشئه وتعلمه الكلام وتلقنه اللغـة بما لاتزال تصبه فى أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها بمعنى ، وتفهم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغة ، وتمـد له أول ما يلزمه من الذخيرة فى رحلة حياته ، فليست المرأة عاملا لايستهان به فى تقرير اللغة الكلامية وصقلها ، فحسب . بل هى كذلك أول معلم تتلقى عنه هذه اللغة ، ومحذقها منه .

وأقل ما يقال أن المرأة شريكة الرجل فى تقرير اللغة وأوضاعها . فمن العجائب بعد ذلك أن تجيء فتقول غيروا هذه اللغة ، وبدلوا أوضاعها ، واحذفوا نون النسوة وما يجرى مجراها ولمـاذا ؟ لأنها تبغى المساواة ، أو تطلبها على الأصح ، وفى أى شيء تطلب هذه المساواة ؟ فى الحقوق والحريات . وممن تطلبها ؟ من الرجال ...

فاسمحن لى أن أقول انى لا أبخل على المرأة بشيء تشتهيه ، ولكنى لا أفهم هذه المساواة التى تطلبها ، ولا أعرف للفظها معنى فى هـذا المقام ، إن كل حق ينبغى أن يقابله واجب وإلا انقلب امتيازا ليس له مسوغ ، فاذا كانت المرأة تريد أن يكون لها مثل حقوق الرجل ، فلتتفضل وتحمل ما يحمل من الأعباء وما ينهض به من التكاليف ، وما يؤديه من الواجبات فى كل باب ، وفى السلم وفى الحرب ، وفى البيت وخارج البيت ، وفى حمل الأثقال ، ونقل التراب ، وبناء الدور ، وتمهيد الطرق ، وفى مئات أخرى من هذه الأعمال وغيرها مما يحتاج الى ملكات عقلية خاصة ، وعلى أن لفظ "الحقوق" أيضا خطأ ، فالرجل لا يزاول حقوقا ، وإنما يؤدى وظيفة ، هى التى ألفاها موكولة اليه فى الحياة ، ولو استطاع لأعفى نفسه من ثقلها وألقى عبئها على كاهل غير كاهله ، وما أظن بالرجل إلا أنه خليق أن يسره أن يرى المرأة تشاطره عمله وتريحه من بعض عنائه ، فلتتفضل مشكورة غير محسودة إذا قدرت .

ليس هناك تمييز للرجل دون المرأة ، حتى تحتاج المـرأة أن تطلب المساواة و إنما الذى هناك هو توزيع اختصاص ، للرجل وظيفة ، وللمرأة وظيفة ، ولم يكن الرجل مخيرا فى أمره ، ولا كانت المرأة فى فسحة من رأيها ، وانما فضت الطبيعة عليهما بأن يحمل كل منهما عبئه ، ولست أرى أن أحدهما بقادر على استبدال وظيفة الآخر بوظيفته ، لأن الأمر مرجعه الى أصل التكوين لا إلى الرغبة والاختيار .

وأود أن أقول شيئا آخر ، هو أنه لا فائدة من أن تلهج المرأة بمطالب لها ، فى المساواة أو غيرها ، فلن تنال بكثرة اللغط شيئا ، وانما الذى ينيلها ما تبتغى هو القدرة عليه ، فلتلتمس الوسيلة ولتتسلح بالسلاح اللازم ، ثم لتباشر ما تأنس فى نفسها القدرة عليه ، فما يستطيع

الرجل أن يعطيها شيئا ، حتى اذا أراد ، وانما عليها هى إذا نشدت شيئا ، أن تتأتى له ، وأن تكتسب القدرة عليه ، وأن تزاوله من تلقاء نفسها بلا كلام أو لغط ، فان يقدر الرجل أن يمنعها حينئذ ، أو يصدها عما يسعها .

كانت المرأة تحتجب وتنتقب ، وتلزم بيتها لا تريمه ، لأنها كانت جاهلة ولم تكن تشعر بثقل الحجاب المضروب عليها ولا كانت تتململ منه أو تبرم به ، بل كانت راضية عنه مطمئنة اليه ، زاهدة فى طرحه والتحرر منه ، وكانت لا تنكر حاجتها الى هذا المظهر من مظاهر حماية الرجل لها ، ولا تأنف أن تعترف بالافتقار الى هـذه الحماية ، بل كانت تحتقر الرجل الذى يقصر فى واجب حمايتها ، ولا تعده رجلا خليقا بها ، ثم تعلمت وفهمت ، وأحست وأدركت أن فى وسعها أن تستغنى عن هذه الحماية الى حد ما ، أو أدركت على الأصح أن هذه الحماية مبالغ فيها ولا ضرورة اليها ، وأن السفور لا يحرمها شيئا كانت تنعم به . . وأنه على نقيض ذلك يفيدها شعورا جديدا بآدميتها وشخصيتها ، وذاتيتها المستقلة ، فتمردت على الحجاب ، وسفرت ، ولم يستطع الرجل أن يمنعها ، لأنها أصبحت من تلقاء نفسها أهلا له ، وألفى الرجل نفسه مرتاحا الى هذا التطور ، لأنه يفيد منه ما لم يكن يفيد من الحجاب ، والانسان أنانى بالطبع ، وليس مخلوقا نبيلا أو شريفا أو كريما بالطبع ، وكل ما فى الأمر أنه أصبح حيوانا معقول الحواشى ، واعتاد أن يكبح غرائزه ، أو يجريها فى المجارى التى هيأها النظام الاجتماعى ، خوفا من عواقب المخالفة والشذوذ ، فاجتمع فعل العادة وفعل الخوف ، فهما يستطيعان أن يصدا الانسان عما تدفعه اليه الغرائز الساذجة ، ولولا أن الرجل وجد أنه عاجز عن رد المـرأة الى الحجاب ، ووجد فوق ذلك أن السفور خير له هو وأمتع ، وأخلق بأن يجعل حياته أكثر امتلاءا ، لقاومه بكل ما أوتى من قوة .

وهذا مثال يمكن أن يقاس عليه ، والذى يستخلص منه ، هو أن الانسان يأخذ كل ما يسعه أخذه ، ولا يعطى إلا مضطرا ، ولا يتسهل إلا فيما يرى له مصلحة فيه ، أو ما يرى نفسه عاجزا عن مناهضته ودفعه ، فاذا أرادت المرأة إصلاحا فى أى وجه من وجوه الحياة ، فان عليها أمرين ، الأول أن تهيىء هى نفسها لهذا الإصلاح ، وأن تقنع الرجل عمليا بأنه خير له هو ، وأن مصلحته هو تقتضيه . فان يكتفى بأن يرى لها هى وحدها مصلحة فيه .

ويجب أن يكون مفهوما ومقررا فى الأذهان ، أنه ليس ثم حق مطلق ، أو حرية مطلقة ، وأن كل حق مقيد ، وكل حرية لها حدودها ، وأن الجماعة الانسانية لا تستغنى عن قدر من النظام تضبط به الأمور ، ويستقيم به الحال ، وتستقر على حدوده الحياة ، فكل إصلاح منشود ، ينبغى أن تراعى فيه هذه الضرورة ، وإلا فسد الأمر ، وارتددنا إلى الاستيحاش والتوحش ، أو اضطربت على الأقل حياة الجماعة

وأضرب مثالا قد يغنى — أو أرجو أن يغنى عن غيره — تعدد الزوجات والصيحات العالية فى موضوعه ، واللغط الممل بوجوب علاجه ، وأعترف أنى أنفر نفورا شديدا من هذا التعدد ، ولا أطيق أن أتصور أن تكون لى زوجتان ، بل أشعر بقشعريرة تسرى فى بدنى إذا خطر لى ذلك ، ولكنى أوثر أن أكون صريحا فأقول أن لى عقلا كما أن لى شعورا ، وعقلى يقول لى إن نفورى من الجمع بين زوجتين يرجع فى مرد أمره إلى أمور كثيرة شتى — منها العادة ، فقد أصبحت زوجتى صديقا لى يملأ حياتى فأنا لا أستطيع أن أتصور كيف تكون حياتى ، أو كيف تطيب لى إذا خلت من هذه الزوجة الصديق ، ولا أطيق أن أنغص حياتها التى طبت أنا بها نفسا ، بأن أجيئها بضرة تنافسها ، ومنها انى أجد راحة فى الاقتصار على زوجة واحدة لا أطمع فى مثلها إذا كانت لى اثنتان ، فأنا أوثر الراحة والعافية ، على المشقة ووجع القلب ، وأوثر أيضا ألا اضطر إلى اصطناع أخلاق النفاق ، وهو مايضطر اليه زوج الاثنين ، ومنها أن الابناء مشكلة ، والإخوة الأشقاء خير من غير الأشقاء ، ومنها أنه ليس لى مال يكفى زوجتين ومن عسى أن تجيئانى به من البنين والبنات .

كل هذه وجوه تنفرنى من تعدد الزوجات ، بعضها عاطفى ، وبعضها عملى ، ولكن عقلى يقول لى أشياء أخرى كثيرة .

يقول لى إن الإنسان لا يعرف التوحيد فى الحب ، لا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، وقد ينكر السامع قولى هذا ويستهجنه ، ولكن الحقيقة هى أن التوحيد فى الحب أكذوبة ضخمة ، وخرافة يلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب ، وأنا أعرف أن كثيرين جدا من الرجال يشعون اللجم لأنفسهم ويكبحونها كبحا شديدا . ويفرضون على أنفسهم هذا التوحيد . وأعرف أن النساء اللواتى يلتزمن حدود التوحيد أكثر من الرجال الذين يفرضون على أنفسهم به . ولكن هذا معناه ماذا ؟ معناه أن الانسان يروض نفسه على هذا التوحيد ويتكلفه . وفرق ولا شك بين التكلف وما تدفع اليه وتغرى به الفطرة . ومعناه أن المرأة أقدر على الرضى برجل واحد . لأنها أضعف من الرجل وأقل حيلة . ولأنها أيضا أطول إخلاصا منه . ووفاء . ولاحظوا أنى أقول " أطول إخلاصا ولا أقول أخلص . فالرجل يخلص والمرأة تخلص . ولكن عمر الإخلاص عند الرجل أقصر فى الأغلب من عمر إخلاص المرأة . يعوزه المال . وقد يستطيع المرء أن يخفيه ويحجبه فلا يتبدى فى قوله أو فعله . ولكن هذا ليس معناه أن المال غير حاصل . وإذا سلك المرء سلوك المخلص وسار سيرة الوفى . فليس معنى هذا أنّ الإخلاص فى قلبه . فيجب التفريق بين السيرة والمضمر المطوى فى السريرة .

ويقول لى عقلى أيضا إن هذه هى علة جانب على الأقل من جواب النساء الخلق التى فى الدنيا . ولا مطمع لأحد فى القضاء التام على الفساد . فان هذا يكاد يكون فوق طاقة

البشر . فان دواعيه أكثر من أن تحصى . أو تيسر علاجها جميعا . ولحسب المصلح أن يعالج بعضها مما يدخل فى طوقه . وأن يخفف الشر و يلطف الأثر ويحمى الجماعة بل عواقبه . والعقل يقول إن تعدد الزوجات طبيعى أولا اذا اعتبرنا ماتنزع اليه الفطرة . و إنه خليق أن يصد عن بعض الفساد . ويقول العقل أخيرا إن منع تعدد الزوجات لايمنع شيئا من الفساد والبلايا التى تصيب الجماعة بل يشجع عليها .

و ينبغى أن لانغفل أثر الآراء والنزعات التى نستوردها من الغرب . وكثير منها من ثمار هذه الحرب التى تركت الرجل دون النساء فى العدد . والتى أفضت الى قدر لايستهان به من الترخص والتسهل والتسامح لم يكن معروفا من قبل. فاذا أضفنا هذه الواردات الأجنبية . التى نسرع لجهلنا وضعفنا وانحطاطنا الى تقبلها والأخذ بها — اذا أضفنا هذا الى فساد نظامنا الاجتماعى . واضطراب نظامنا الاقتصادى وسوئه . والى التقدم العلمى ولا سيما فى الطب، والى فساد الذمة واللهفة على الغنى السريع — وهما من آثار كل حرب — أقول اذا أضفنا هذه العوامل أمكن أن نستشف من خلال أستار الغيب حالة اجتماعية تقوم على مبادئ خلقية جديدة . لا تطابق مبادئنا الخلقية الحالية كل المطابقة . ومن الواجب أن نجعل بالنا الى هذا الطور المنتظر . وأن لانسرف فى صيحات الاعتراض على تعدد الزوجات من غير أن ندرك ادراكا صحيحا هذا التطور المرتقب . فلن تكون المسألة فى غد هل تتعدد الزوجات أو لا يتعددن . بل هل ستبقى الفضائل الأخلاقية هى المسيطرة على علاقة الرجل بالمرأة أو لا تبقى ؟ هذا ما ينبغى أن نتنبه اليه . ونفتح عيوننا من الآن عليه . وندبر أمورنا ونصلح شئوننا بحيث يتسنى لنا أن نتقى خطره . و إلا كنا عميانا لا خير فينا . وعدنا أهلا لكل ما يحيق بنا .

و إنى لأسمح لنفسى بأن أكون مغرورا وأرى أنى نجحت إذا أنا استطعت أن أوقظ القلوب وأنبه النفوس لما هو مرتقب من التطور الخلق الذى يبدو لى من الآن جليا . والذى يجب أن ندخله فى حسابنا إذا أردنا أن نجعل لما نحاول من الإصلاح قيمة . وكل إصلاح لا يحسب فيه حساب هذا التطور الذى نمضى اليه بسرعة . لا يفضى إلا الى زيادة الاضطراب وشيوع الفساد .